

الأماكن المفتوحة و المغلقة في روايات غائب طعمة فرمان

Open and closed places in the accounts of Ghaib Tuma Ferman

الباحثة رؤى يعقوب الكريطي

أ.د. م محسن تركي الزبيدي

Introduction

The place plays an important role in shaping people's lives, establishing their identity and establishing their identity, and thus determining their actions and awareness of things, because they are more attached to their lives and more permeable in their being. Thus, if time is aware of an indirect perception through its actions in things, the place is aware of a sense that begins with the experience of man in his body, this body (place) the pot of the soul or the reservoir of psychological, mental and emotional forces of the organism to move it to the nearest place to it. The place of fiction is a phonetic place imagined by the language because of the purposes of fictional fiction and needs. It is the backbone that connects the parts of the novel with each other and the first material base on which the text rises, and it absorbs an event, a personality and a time, and the reflective and reflective screen of his movement and effectiveness, as it enables the novelist to draw people and events in minute detail. It is one of the basic components of narrative work, and it has the ability to determine the character traits, identity and identity.

المقدمة

يلعب المكان دوراً مهماً في تكوين حياة البشر ، وترسيخ كيانهم وتثبيت هويتهم ، ومن ثمّ يحدد تصرفاتهم وادراكهم للأشياء ؛ لكونه أشدّ التصاقاً بحياتهم ، وأكثر تغلغلاً في كيانهم . وعليه فإنّ كان الزمن يدرك إدراكاً غير مباشر من خلال فعله في الأشياء فإنّ المكان يدرك ادراكاً حسيّاً يبدأ بخبرة الإنسان بجسده ، هذا الجسد (المكان) وعاء الروح أو مكمّن القوى النفسية والعقلية والعاطفية للكائن الحي ليتعداه بعدها إلى أقرب مكان إليه . فالمكان الروائي هو مكان لفظي متخيّل صنعته اللغة نظراً لأغراض التخيل الروائي وحاجاته. وهو العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية مع بعضها والقاعدة المادية الأولى التي ينهض عليها النص ، ويستوعب حدثاً وشخصية وزمناً، ولكونه يمكن الروائي من رسم الأشخاص والأحداث في تفاصيلها الدقيقة. ويعد من المكونات الأساسية للعمل السردي، ، كما له القدرة على تحدد ملامح الشخصية الروائية وانتمائها و هويتها .

تختلف حاجة الكاتب، عند وصف الخلفيات الخاصة لشخصياته وأحداثه، فقد يحتاج في بعض الأحيان إلى وصف خلفيّة موسّعة، أو يركّز على جزئيات بسيطة بحسب الحاجة التي يتطلبها الموقف، أو الحدث القصصي (1) . و اختلفت الأماكن في روايات غائب طعمة فرمان ما بين مكان مغلق ومكان مفتوح . " فالمكان سواء أكان مغلقاً أم مفتوحاً يستطيع أن يفسر كثيراً من الدلالات الإجتماعية والنفسية وإحالتها على عالم رمزي أو واقعي متخيّل. " (2)

المبحث الأول // الأماكن المفتوحة :

هي الأماكن ذات المساحات الواسعة التي توحى بالمجهول، أو توحى بالألفة والمحبة. وقد تكون الأماكن المفتوحة ذات مساحات متوسطة كالحى الشعبي الذي يحقق للإنسان المودة والحب ، ومنها ما يكون بفضائه اغتراباً وضياعاً للإنسان وبالتالي فهو مكان سلبي كالمدينة بالنسبة للقادمين عليها ولم يعتادوا العيش فيها. و هو " المكان الرئيسي المركزي ذو البعد الجغرافي الذي تجري فيه الأحداث ، وتتحرك في إطاره الشخصيات ، أو تنتقل إليه. " (3) و من الأماكن المفتوحة التي تواجهنا في روايات غائب طعمة هي :-

1 - المدينة : إن مدينة بغداد هي المسرح الدائم الذي أقام عليه غائب طعمة فرمان رواياته ، وسلط الضوء عليها من خلال رصده لشوارعها ، وحركة أناسها الدووية كما جاء في رواية (آلام السيد معروف) على لسان الراوي يقول: " كانت المدينة تنتهياً لليلها الأسود والزوحلاوي . مقاصير بيع السمك ، والمقاهي المكشوفة ، والحانات المتناثرة كمصائد للغواية والضلالة وهناك سيل لا ينقطع ممن يجربون أقدامهم بلا هدف ، أشلاء

نهار يوشك أن ينقضي دون أن يخلف حسرة . وجميعهم على ما يظن السيد معروف ، فارغو القلوب ويتصيّدون ما يشغل بالهم ، وبلتهم ساعات فراغهم الفارغة ، العيون تتلصص، الألسنة مستعدة للقليل والقال، زهد فيهم ، وأسرع يحث خطاه لكيلا يفوّت موعده مع الغروب ، تسابحه ومعراجه إلى مدن وسماوات لا يحلمون بها ، من بين هذا الخلق ، الشارع المسترخي بعد حر ظهيرة لا يرحم ، جمهرة غفيرة ، بالتأكيد من أولئك الذين جاءوا يتهوون من رائحة المكاتب ، وغبار الاضبارات ، و منهم من يزفر مثله ، " كاريون " ترسب في الأنف والحنجرة و الأجفان⁽⁴⁾ . ف رؤية الشخصية للمدينة بهذه الصورة الماثلة بين أيدينا وحالة الانزواء والانفصال مع المدينة جاء انعكاساً لحالة الانهزام والفشل التي تعاني منها الشخصية بسبب حالة الضعف والانقسام التي تمر بها البلاد.

فالمدينة وعاء لكل الأحداث السياسية، والاجتماعية، والثقافية لذلك كان تسليط الضوء عليها واضحاً ، والكاتب لا يصور المدينة على أنها مكان هندسي فحسب ، بل هي كيان متقل بمشاعر ، ومواقف ، وهموم ، و انفعالات ، وهي " ليست آلة تدور في حلقة مفرغة ، انها تلم فضاءاتها الطبيعية والمادية لتتسج ضلالاً للشخصيات و الأفعال و تملأ الفضاء الروائي بعلامات واستعارات فنية"⁽⁵⁾ والكاتب في رواياته جميعها أعطى صورة واقعية واضحة لمدينة بغداد في فترات زمنية مختلفة وما مرت بها من تغيرات سلبية ، وإيجابية .

أما في رواية (المرتجى والمؤجل) فما نلاحظه أن الكاتب لا يذكر اسم المدينة ، ولا حتى أسماء شوارعها ، ولا يذكر اسم أي معلم فيها ، بل يذكر الأماكن مجردة من أسمائها، وهذا التغييب وسيلة دفاعية يلجأ إليها الكاتب ليعبر عن تيرمه ، وسخطه على المدينة فهو ينكر أرض الغربة ، ولا يريد أن يعطي أبسط معرّف لها ألا وهو الاسم ، و يعتمد إلى طمس حضوره وبالتالي خلخلة أهميته⁽⁶⁾ . و المدينة في الغربة أرض تجمع خليطاً من البشر اغتربوا عن أوطانهم ، لسبب ما . وهي أرض يفتقد المرء فيها لشعور الانتماء فالكاتب لم يستطع ان يتعايش مع ارض الغربة فهي لم تترك فيه أثراً جميلاً بل كان يعيش معها حالة من الاغتراب التي تجعله يحاول أن لا يرسخ اسمها في ذاكرته فيلجأ إلى عدم ذكر اسم المكان أو المدينة . و " هناك شعورٌ بالكراهية عند البطل يغلف المدينة ، فللمدينة سطوة قاسية تصل إلى حد استلاب الإنسان استلاباً كاملاً بحيث يصعب التعرف على نفسه بعد ذلك "⁽⁷⁾.

2- الشارع : هو صحراء المدينة ، و جزؤها الزمني ، وحياتها الدائبة المتحركة ، ومحرك بعدها الحضاري ، مكان نموذجي للانتقال والمرور يشهد حركة الشخصيات وبشكل مسرحاً لغدوها و رواحها، فلانعطافاته تحولات في الزمان والمكان ، لسعته رؤية ريفية مدنية ، ولضيقه رؤية المدن الصغيرة الوسطية ولساكنيه حرية الفعل

وإمكانية الحركة والتنقل؛ لذلك فعدم استقراره هو استقرار آخر، هو التكوين الذي بدونه لم يصبح للشارع معنى (8) .
 جاء وصف الشارع في رواية (المخاض) على لسان الراوي (كريم) :

"هذا هو شارع الجمهورية مرة أخرى خرائب ، إن للتراب وسط بيوت الناس لونا قبيحاً منفراً كان في كل مكان على الأرصفة غير المستوية والجدران البكماء والساحات و وجوه الناس وأرجل الأطفال الحافية في الأرصفة أكوام من الحجارة ربما هي بقايا البيوت التي هدمت بينما كانت البيوت الأخرى التي سلمت تدبر لنا أفقيتها القبيحة المثقبة بآلاف الثقوب الصغيرة مثل خلايا نحل مهجورة . التراب هنا هو السيد إنه هش منتثب وعدائي ولعبة لأية ريح ولأية حركة حتى خففة نعل أو رفة ثوب مررنا بالبركة الجافة في ميدان الخلاني قبيحة ومهجورة تتناثر الأحجار المهشمة في فعرها الجاف ولون التراب يطغي على حوافها التي ما تزال صقيلة وهذه هي منطقتنا" (9) .

ففي هذه الرواية يسمي الشارع باسمه الحقيقي ليضفي شيئاً من الواقعية على الرواية وليعزز انتماءه إليه ، ومن هذا النص نتضح مدى التغيرات التي طرأت على مدينة بغداد بعد الثورة ومدى قباحة هذا التغيير الذي يبدو سيئاً ومنفراً في عين الراوي ، فالبطل بدأ يعيش حالة من الاغتراب النفسي والمكاني بسبب التغيرات التي طرأت على المدينة نتيجة قيام الحكومة الجديدة فهو لم يستطع التعايش معها بعد عودته من الغربة فبغداد مثلت حقبة سياسية تثير الاشمئزاز وخلعت ثوبها الجميل الذي يمثل الحقبة الملكية . ونجد الكاتب يذكر الشوارع بأسمائها الحقيقية في رواية (خمسة أصوات) أيضاً:

" وقف ابراهيم في رأس زقاق في الحيدر خانة يتأمل هذا الجانب من شارع الرشيد . كان الناس يسيرون بعجالة في اغبرار أزرق تثيره حركة سيارات مجنونة تهز الهواء بزعيق منبهاتها ، هذا هو اليوم الثالث، الوجوه مجهدة خط عليها تاريخ اليومين الماضيين والعيون جوارح جائعة إلى النوم بؤر حادة مثل تلك الرؤوس الماسية في آلات قطع الزجاج ، كانت تنفذ ، تشق نقاب الغبار المزرق بحركات قلقة باحثة عن شيء ما . وكانت تتوقف أحياناً عند نقطة ما . وتتابع حركتها. مرّ قرب مقهى الزهاوي رتل من السيارات المعبأة أحواضها بالناس ، فتعلقت العيون بها و راقب سيرها . وصاح رجل في أثرها: "الاعتماد عليكم يا شباب!" كان مفهومًا له مفهومًا لكل الناس إلى أين ذاهبة هذه السيارات ، في الأرصفة نوع من البشر يسير سيراً كالكهولة ، أناس متشابهون تقريباً يحملون كل ما يملكونه في الدنيا ، ويفرون من شيء مفزع". (10) فالكاتب يصور ما حلّ بالشعب العراقي من تخبط وتدهور بعد التغيرات السياسية وما حلّ بالبلاد جزاء فيضان نهر دجلة و هدّد خطر الفيضان أرواح الناس وممتلكاتهم ، ويرسم حالة الذعر البادية على وجوه الناس ، والحملات التطوعية من الأهالي ورجال

الشرطة لحراسة السدود وأخذ التدابير اللازمة للخروج من الأزمة بأقل الأضرار، وفرار بعضهم ممن يستطيع ذلك .

ومن الأماكن المفتوحة التي ورد ذكرها في رواية ظلال على النافذة الشارع

جاء في المونولوج الداخلي لشخصية (ماجد) يقول : " مازلت عاطلاً عن العمل ، اتلمس سبيلي عبر شوارع و دروب تبدو غريبة عليّ ، اتعثّر في ارضيتها المحفرة ، وغير المستوية ، واخجل من النظرات إذا صوبت إليّ ، وأخشى أن يبادرنى أحد بسؤال أو استفسار ، فيظهر جهلي واغترابي عن المدينة ، عدت فرأيت أهلي قد انتقلوا من بيتهم القديم إلى بيت جديد ، في منطقة جديدة عليّ ، أنا أذكر الوشاش كمنطقة نائية كنت ألجأ إليها أيام كنت أهرب من مدرستي الابتدائية ، فأتيه بين السكك الحديدية وأتسكع بين الباعة في ساحة السكك ، أما الآن فهي منطقة خطّت فيها شوارع وبنيت دوراً. إلا أن عربات النفط على البيوت ، ومازال باعة السمك الميت والعربات المحملة بالخبس ، وعربات البرتقال المغلف بطبقة رقيقة من الغبار ، والشمس تملأ الرحاب بوجهها المستعر ، والسيارات منطلقة على الشارع الاسفلتي تثير الغبار ، والصبية يتراكمون على الأرصفة الترابية ، ويثيرون الغبار أيضاً ، والسماء صافية رصينة عميقة الزرقة ، والخضرة المغبرة متهافئة كسول . رموز طفولتي الماضية رأيتها منتشرة على بقعة أنظف و أوسع ، مثل معروضات متبقية من متجر كان عامراً بالتحف والتذكارات ، لم تبادرنى بالحوار حتى الآن ، كانت تحدث نقطة تماس ."⁽¹¹⁾

ينقل الكاتب الشوارع والأرصفة و الأماكن المتعلقة بذاكرته في الأحياء الشعبية التي عاش فيها طفولته .

أما الشارع في أرض الغربة فجاء خالياً ومظلماً ومتسعاً فهذا الشارع تضيع فيه الشخصية وتشعر فيه بالخواء اذ يتلوى ويدور حتى تفقد فيه الشخصية اتجاهها، وقد مثل الشارع له نفقاً مظلماً لا يستطيع من خلاله الوصول إلى أهله والاندماج مع الحالة الجديدة التي تمر بها البلاد.

3- المحلة : أحد المناطق الشعبية التي يسكنها الناس ذوو الدخل المتواضع " هذه هي محلة المصلوب ، إنه يعرفها بجامعها العتيق و أزقتها مشقوقة بمجري المياه الآسنة . ولكن أين البيت؟ اين زقاق 104 "النیشان دكان نجار" ومصبغة تتشم رائحتها من بعيد " . وانعطف إلى زقاق عرضه المقرر 7 ، وآخر عرضه المقرر 5، وثالث ممسوح ، ورابع من غير هوية ، وقابلته ساعة صغيرة بين ثلاث ازقة وكان في رأس أحدها دكان نجار !"⁽¹²⁾ فالكاتب يذكر المحلة بإسمها الحقيقي ويضع أسماء الأزقة والبيوت ليوهم بواقعيتها . وما الماء الآسن و الطرق الضيقة وعفونة المكان، وضيقة إلا دلالة على وضع اقتصادي

متدين ، (ف) حليلة (زوجة حميد) كانت تعاني من هذا المكان كثيراً ؛ نتيجة موت أبناءها واحداً تلو الآخر في هذا المكان العفن الذي تنفسي فيه الأمراض، وهذا ما أدى إلى مغادرتها إياه .

ومن خلال الوصف في روايات غائب طعمة للأحياء الشعبية تظهر العلاقة الوشيجة التي تربط بين أبنائه. فالحي الشعبي هو انتماؤه الحقيقي ، يتذكر فيه تضامنهم وتشاركهم في الأفراح والأتراح ويصور " الحركة الحيوية النشطة لسكاني تلك البيوت الشعبية حتى نشعر إن تلك البيوت بلا جدران فاصلة"⁽¹³⁾ كما في رواية (النخلة والجيران) التي صورت الحياة البغدادية بعد الحرب العالمية الثانية ف(مرهون السائس) كان يوقض (سليمة الخبازة) لتنهض إلى عملها كل يوم قبل طلوع الفجر وهذا يدل على تلاصق جدران بيوتهم، وكان مهمم واحداً عندما أراد (احمد آغا) بيع الطولة، كذلك النصائح التي كان يقدمها (صاحب) ل(حسين) وحثه على إكمال دراسته ، ومطالبة حسين بدم(صاحب) والأخذ بثأره، هذه المواقف كلها تدل على تألفهم⁽¹⁴⁾.

المبحث الثاني // الأماكن المغلقة :

هي أماكن العيش والسكن التي حُدِّت مساحتها ،ومكوناتها. يأوي إليها الإنسان ويبقى فيها فترات طويلة من الزمن سواء بإرادته أم بإرادة الآخرين ؛ لهذا فهي الأماكن المؤطرة بالحدود الهندسية والجغرافية .
قد تكشف هذه الأماكن عن الألفة والأمان أو تكون مصدراً للخوف⁽¹⁵⁾. و من أكثر الأماكن المغلقة وروداً في روايات غائب طعمة هي:

1_ المقاهي : أماكن مغلقة معدة للإقامة المؤقتة ، يرى فيها الناس بعضهم بعضاً باختلاف أعمارهم و مستوياتهم الفكرية و طبقاتهم الاجتماعية.

يدخل المقهى في بناء العمل الروائي بوصفه فسحة خلّاقة تقدم تفاعلاً ملموساً مع شخصيات العمل نفسه و هو فضاء تتمحور فيه الأحداث التي تجري من خلالها الحوارات والوصف¹⁶ . فضلاً عن ذلك فهو يحتضن الوطنيين والمتقنين والسياسيين ، و يضم في جانب آخر الجواسيس ذوي العيون النهمّة الذين زرعتهم السلطات القائمة. وهذا يبدو واضحاً في المنولوج الداخلي لشخصية (ماجد) في رواية (ظلال على النافذة) " بعد الساعة الرابعة اجتمعنا في مقهى (علوان) وهو مقهى صغير يجاور حانوتا للحلويات ، يرتاده العاطلون من المتقنين الثوريين، والمخبرون السريون من ذوي العيون النهمّة ، والآذان المرهفة ، ولعل هذا المقهى هو البقعة الوحيدة التي يتعايش فيها هذان الصنفان في سلام ظاهري على الأقل . رأيت الزملاء قد سبقوني كان الفراغ في عيونهم

، والملل على أيديهم المرتخية على ركبهم أو على أذرع التخوت . وكان أحدهم يقضم (صمونة) عبئت بشيء ما لا يبتلع بسهولة . فكان يتكور خلف الخدين المنتفخين .

كم أنا أكره هذا القطيع ، وكم أنا مستسلم لضياعه ، وخدره ! وكم كل كلمة تصاغ لتبدو حيادية ، وبصوت عالٍ إراحة للمخبرين ، على المثل القائل : "أحدثك يا بنتي ، واسمعي يا جارة ! وكانت أعلى " ثورية " مسموح بها في هذا الجو ترديد البيت القائل " بلادي، وإن جارت علي عزيزة " . فقد كان كل شيء عزيز علينا : الخبز والبطالة ، والنفط والجوع ، والأصدقاء والمخبرون ، الشعب وجلادوه ، مقهى علوان وبار الطاحونة .⁽¹⁷⁾

لم يكن الغرض من ارتياد المقاهي للتسلية وقضاء وقت الفراغ فقط بل كانت المقاهي تحتضن الحوار الذي يدور بين المثقفين حول قضايا أدبية وسياسية . و من خلال هذا النص تتضح درجة البؤس التي وصل إليها المثقفون بحيث لا يجدون لقمة هانئة يأكلوها سوى صمونة حُشر بداخلها شيء صلب . والمقهى هنا لا يمثل مكان التجمع فقط بل هو يمثل الحالة السياسية التي يمر بها البلد وانعكاس لما يحدث فيه من صراع بين القوى السياسية والشعبية وبين السلطة .

وقد شغلت المقاهي حيزاً واسعاً في جميع روايات غائب طعمة فرمان وكان المقهى في رواية (القربان) المكان والمحرك الرئيس لأغلب أحداث الرواية وصراعاتها وردود فعل شخصياتها⁽¹⁸⁾.

2- البيت : هو أحد الأماكن المغلقة "والمكان الأول الذي تثبت فيه الشخصية أمها و فرحها وحزنها وغضبها، فهو يمثل مكان الاحتماء والاستقرار كما أنه رمز الشخصية و وجودها في الرواية " ⁽¹⁹⁾.

وقد ورد وصف البيت بدقة في روايات غائب طعمة جميعها لأن بيت الشخصية هو انعكاس للوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه .

" المشتمل مؤلف من ثلاث غرف اثنتان متوسطتان تطلان على فناء ضيق تزحمه شجرة مهملة لا للموت ولا للحياة تبدو أثراً منسياً لحديقة كانت موجودة في زمن ما و الغرفة الثالثة صغيرة يؤدي إليها سلم أشبه بسلم باخرة مصفح بالوان بلاستيكية مضلعة خضراء مرقطة ببقع بيض تبدو مثل قشور بيض أو لطخات جص وقد احتفظت ساجدة بهذه الحجرة لابن عمها طارق المؤجر الرسمي للمشتمل وهو لا يأتي إلا في أوقات متباعدة فرشت الغرفتين بميسور الأثاث وأهمها سرير عريض يبدو مثل سطح مدرعة محروقة.⁽²⁰⁾ فهذا البيت يدل على وضع اقتصادي متردّ فالأثاث بسيط جداً لا يوفر سبل الراحة لسكانيه .

أما البيت الذي كان يسكنه السائق (نوري) مع زوجته (هدية) فيصفه الراوي بقوله :

" كان البيت صغيراً مربع الشكل تقريباً مكشوفاً للشمس إلا من الجهة التي جُنْتُ منها رأيت إلى يميني ليواناً في داخله حجرة وإلى يساري حجرة أخرى مرتفعة عن الأرض لها شباكان دعنتا هدية إلى الليوان الذي استخدم نصفه كمطبخ و امتلاً النصف الآخر بتخت عريض بلا ظهر ولكن بمتكئين جانبيين وكانت البطانة قماشة زائدة "(21) فكانت أغلب البيوت البغدادية للناس عامة تتصف بهذه المواصفات فهم من الناس البسطاء مادياً فالبيت يرتبط بشخصية البطل، وبطبيعة الرؤى والأفكار التي تحملها هذه الشخصية ففي الأدب دائماً يكون البيت تعبيراً صادقاً عن الإنسان، فإذا وصفت البيت، فقد وصفت الإنسان، والبيوت تعبر دوماً عن أصحابها .

و" للبيت طابع هندسي لا يمكن انكاره ؛ إلا أنه أكثر من مجرد كيان هندسي ، إنه بالاحرى روح انسانية يجسدها ويجلبها العمل الفني إلى الوجود في الصورة الفنية ومن خلالها "(22). فهذا البيت يعكس معاناة بعض فئات المجتمع بعد الأزمة الاقتصادية التي خلفتها أحداث ثورة 1958م ، والتقلبات السياسية التي مرت بها البلاد.

3- **مكان العمل** : لقد كان مبنى الصحيفة هو المكان الذي تكرر ذكره بشكل لافت في اغلب روايات غائب و ربما ذلك يعود إلى طبيعة عمله في الصحافة والترجمة الذي يعود إلى أيام دراسته الجامعية في القاهرة .

" كانت الجريدة التي يعمل فيها سعيد بناية هرمة حذاء متظامنة شهدت جانباً من العهد العثماني ، وكل الحكم الوطني وفيضانات دجلة السخية ، وأصداء المعترك الوهمية في دائرة الأختام الحكومية المجاورة لها ، وفي البنانية عشر غرف ، و ثلاث سراديب سقوفها شبيهة بصدر حمال عجوز يحمل أكثر مما يستطيع وهم الآن في حجرتين خضراوين في الطابق الثاني . " (23) فهذا الوصف يُنبأ عن الإهمال الذي طال مؤسسات الدولة فهذه البناية على الرغم من مرور فترة زمنية طويلة وتعرضها لفيضانات نهر دجلة إلا أنه لم يتم إصلاح الخراب الذي تعرضت له . وتشير إلى حالة البؤس وشعور الكراهية الذي يتولد لدى ساكنيها . فغائب يوظف المكان ليوضح الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تمر بها البلاد .

4- **الغرف** : يقع فوق الأرض ، تحجب النور ، و تصنعه ، وتجعل لباحثها الصغيرة إمكانية تعويضية عن الفضاء السمح الأقل المتجدد . واستطاع الإنسان بخبرته ، وحاجاته ، وتعدد أزمته وتعاقبها أن يوطن نفسه السكن فيها ، فالغرف في تكوينها الفكري حاجات لا بديل لها وحاجات تتزايد بتعدد الحاجات الجديدة ، وهكذا تدخل دائرة متشابكة مستمرة من الحياة ، ترافق رحلة طويلة لا نهاية لها"(24).

تولي الروايات اهتماماً خاصاً بهذا المكان وتنقل لنا محتوياته بصورة دقيقة فيبدو كتصوير فوتوغرافي لأثاث الغرفة وساكنيها .

" أجال بصره في الغرفة الصغيرة نصف مظلمة الشبيهة بززانة بقضبان نافذتها القائمة التي تغريل ضوء الليوان ، وترسله شاحباً رمادياً حتى في هذه الساعة من الصباح . وشعر بأنه حي كأني جرد من جردانها الوقحة. كأني خنفساء متربة تدب في أرجائها... ورأى القاموس العصري ، والترجمة الانكليزية لمدام بوقاري ، ودفتر الكلمات الصغير الموضوع على مقعد قديم كانت توضع عليه جرار الماء في السطح"⁽²⁵⁾.

إن هذه الغرفة المظلمة تذكى مشاعر الحزن والأسى في نفس الشخصية التي تسكنها وتضاعف إحساسه بالانسحاق وتزداد آلامه ومعاناته و قلة الضوء في الغرفة قرينة مادية دالة على الفقر .

فنلاحظ إن الكاتب وصف الغرف في رواياته جميعها على أنها تفتقر لوسائل الراحة الجسدية والنفسية وذلك لإبراز ملامح المستوى الاقتصادي والاجتماعي فللمكان دلالة تأثيرية إذ بتأثيره يتحول المكان الأليف إلى معادي ويكون مصدر قلق وإزعاج لساكنيه .

و وصف الأشياء البسيطة ومحتويات الغرفة يعبر عن مستوى اجتماعي متواضع. وهي مكان لا يبعث على الراحة والاطمئنان بل يبعث على الشعور بالغربة والضياع والانسحاق .

5- البار: من الأماكن التي اعتادت شخصيات رواية (خمسة أصوات) ارتيادها فكان البار عبارة عن " قاعة مستطيلة في آخرها مسرح صغير ، كانت القاعة مملوءة بالموائد ، وعلى جانبها مقاصير ترتفع على الأرض ذراعاً، وفضل شريف الجلوس في آخر القاعة معللاً ذلك بأن كل الراقصات يأتين إلى هنا كلما انتهين من أدوارهن.

جلسا بالقرب من الباب على مائدة بلل مفرشها وبقع ، ولاح المسرح لعيني سعيد الكليلتين بعيداً جداً ، مربعاً من الأنوار غامضاً وراء بساط من مربعات الموائد " ⁽²⁶⁾، ونجد البار من الأماكن الأليفة لشخصيات رواية (المركب) فهم يتجهون إليه مباشرة بعد أن يتركهم المركب متجهاً إلى جزيرة (أم الخنازير) المكان الذي طالما حلموا بزيارته " بعد نصف ساعة استقروا في بار متعبين ، وكأنهم استجاروا بواحة بعد ضياع في صحراء الخيبة أضافت ثقل الرصاص إلى اجسادهم ، والضيق خشب صدورهم ، وفي الدقائق الأولى من وقوعهم على كراسي الخيزران كان الشاطئ الخالي ملء خيالهم قضوا لحضات صمت مثقلة سمعوا خلالها أزيز ثلاجة شائخة

، وسعالاً صادراً من اعماق البار ، ودحرجة شيء ثقيل تحت أقدامهم . وكل ذلك من خبيثهم وضياح صباحهم
»(27).

فالبار مكان يكشف لنا عن الحياة اللاشعورية التي تعيشها الشخصية ، وأن لا شيء في المكان يمكنه أن يكون
ذا دلالة من دون ربطه بالإنسان الذي يعيش فيه .

و" تشخيص المكان في الرواية هو الذي يجعل من أحداثها بالنسبة للقارئ شيئاً محتمل الوقوع، بمعنى يوهم
بواقعتها، إنه يقوم بالدور نفسه الذي يقوم به الديكور، أو الخشبة في المسرح وطبيعي أن أي حدث لا يمكن أن
يتصور وقوعه إلا ضمن إطار معين، لذلك فالروائي دائم الحاجة إلى التأطير المكاني، غير أن درجة التأطير
وقيمته تختلفان من رواية إلى أخرى»(28).

6- المطبخ : في رواية المركب كان المطبخ الملاذ الوحيد لـ (حسنة) التي تعمل خادمة عند خليل مقابل
إيوائها في منزله بعدما تزوجت من رجل مطلق طلقها بعد أن فقدت جنينها وتخلّى عنها والدها . كانت ترضى
ببسيط الطعام وكان يتعجب كيف يمكنها أن تكتنز بهذا اللحم من الأطعمة الرخيصة التي يجلبها للبيت .

والمطبخ من الأماكن المغلقة في (رواية ظلال على النافذة) وفيه (فضيلة) الابنة الوحيدة لعائلة (الحاج عبد
الواحد) تقضي فيه معظم أوقاتها لتعد الطعام

فكانت تلجأ إليه كلما شعرت بالضيق والضياع " سناء : أنا أيضاً ضائعة في تمثيلي لدور الاخت . أليس
حبسي في المطبخ في الصفوف الخلفية ، لا أرى أحداً ، و لا يراني أحد ، أليس في ذلك حكماً في الضياع؟
»(29). وكانت (فضيلة) تقوم بخدمة كل من في البيت وتُسعد كثيراً بكلمات الشكر التي توجه إليها .

فالمطبخ يمثل حالة من حالات الاستعباد للشخصية المسحوقة مادياً ومعنوياً و الإكراه على السكن فيه أو اللجوء
إليه ، بينما يمثل المطبخ عند المرأة التي تنتمي إلى العائلة المرفهة اجتماعياً واقتصادياً مكاناً للتأمل والهروب
من الوحدة والضجر فهو مكان آمن يبعث الراحة والطمأنينة .

" سكون الليل يرسل النعاس إلى جفنيها . مفاصلها خدرة . قدمها تتنان . هومت فضيلة ، و مرت في مخيلتها
صور من حيها القديم ، أيام كانت تبدو وكأن الزقاق كله يلهج باسمها فضيلة ، فضيلة... والآن ، تبدو
كالمحصرة ، منبوذة ، لا احد يعرف من هي ، وماذا تحمل على أكتافها.»(30) وكانت تحن كثيراً إلى بيت الطفولة
ومحلتها القديمة وسكانها . كانت تعرف أهلها ويعرفونها أما في بيتها الجديد هذا فليس لها متنفس إلا النافذة

التي تطل على بيوت الجيران ، فكانت تستمتع بمنظر الطفلة التي تلاعبها والدتها وكانت تتمنى أن تعرف ماذا تقول لها ؟

فتصويره للمكان يعكس بؤس العالم الذي طحنته الحرب وكان يسير حثيثاً نحو الكارثة الاقتصادية .

تتنوع الأمكنة في روايات غائب جميعها وذلك لخدمة النص فلكل مكان وظيفته التي أسندها الكاتب له ، ليجسد الواقع في كل مرحلة من مراحل الرواية لأن الاستناد على الأماكن الحقيقية تقرب الواقع أكثر لذهن القارئ.

ومن الجدير بالذكر إن دلالة الأمكنة قد ارتبطت بالشخصيات التي تخترقها .

الخاتمة :

بعد البحث في الأماكن المفتوحة والمغلقة في روايات فرمان توصلت إلى جملة من النتائج منها:

1- كانت الأماكن المتخيلة في رواياته جميعها مستوحاة من الأماكن التي عاش فيها طفولته الأولى وأيام صباه في بغداد . وهي أماكن هيمنت على رواياته جميعها ، باستثناء روايته (المرتجى والمؤجل) التي تدور أحداثها في بلاد الغربية ،

2- لم يذكر في رواية (المرتجى والمؤجل) أسماء الشوارع والأماكن التي كانت تدور بها الأحداث لأنه أراد إنكار ديار الغربية و أراد أن لا يضع أي معرف لها فهي لا تحتل في قلبه مكان كبغداد وأزقتها ودجلة وشواطئها . أما رواياته الأخرى فقد ذكر المدينة ومعالمها وشوارعها بأسمائها الحقيقية ليضيفي شيء من الواقعية على الرواية و ليعزز انتماءه لذلك المكان .

3- جعل غائب طعمة المكان بمثابة شخص ناطق يعبر عن الأوضاع السياسية والاقتصادية التي تمر بها البلاد ، فتدري المكان هو تدري الحالة السياسية الاقتصادية والاجتماعية .

4- تشخيص المكان في رواياتها جعل الأحداث التي طرحها محتملة الوقوع و بالإمكان إيجادها على أرض الواقع .

الهوامش

- (1) ينظر: الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا: 184 .
- (2) نقلا عن : المكان في روايات غالب هلسا: : 64.
- (3) صورة المكان ودلالته في روايات واسيني الأعرج : 89.
- (4) آلام السيد معروف : 11.
- (5) شعرية الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية) : 143.
- (6) ينظر: المكان في روايات غالب هلسا : 34.
- (7) جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة : 101.
- (8) ينظر : الرواية والمكان : 114. بنية الشكل الروائي ، 79.
- (9) المخاض : 91.
- (10) خمسة اصوات : 151.
- (11) ظلال على النافذة : 37.
- (12) خمسة اصوات : 8.
- (13) المكان في الرواية العربية : 8-9.
- (14) ينظر : النخلة والجبران : 31 39.
- (15) ينظر :جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (حكاية البحار -الدقل - المرفأ) : 43.
- (16) ينظر : جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة : 67_70.
- (17) ظلال على النافذة : 108-109 .
- (18) ينظر: القرين : 8.
- (19) البنية الزمانية والمكانية في رواية زقاق المدق : 48.
- (20) ظلال على النافذة : 248.
- (21) المخاض : 92.
- (22) جاستون باشلار (جماليات الصورة) : 290.
- (23) خمسة اصوات : 10.
- (24) الرواية والمكان : 74-75 .
- (25) خمسة اصوات : 93.
- (26) خمسة اصوات : 286.
- (27) المركب : 13.
- (28) بنية النص السردي : 65.

(26) ظلال على النافذة: 216.

(30) ظلال على النافذة : 98.

المصادر والمراجع :

- الروايات :

1. آلام السيد معروف: غائب طعمة فرمان ، ط1، دار الفارابي . بيروت ، 1982م.
2. خمسة اصوات : غائب طعمة فرمان ، ط2، دار المدى للثقافة والنشر ، 2008م .
3. ظلال على النافذة : غائب طعمة فرمان ، دار الآداب ، بيروت .
4. القران : غائب طعمة فرمان ، مطبعة الأديب البغدادية ، (د.ط) ، (د.ت) .
5. المخاض : غائب طعمة فرمان ، منشورات مكتبة التحرير، بغداد ، 1394 هـ . 1974م.
6. المرتجى والمؤجل : غائب طعمة فرمان ، دار الفارابي ، 1986م.
7. المركب: غائب طعمة فرمان ، ط1، دار الآداب ، 1989م.
8. النخلة والجيران : غائب طعمة فرمان ، ط2، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 2007م.

- الكتب :

9. بنية الشكل الروائي (الفضاء . الزمن . الشخصية) : حسن بحرأوي ، ط1، المركز الثقافي العربي ، 1990م.
10. بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي) : حميد الحمداني ، ط1، المركز العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، 1991م.
11. جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (حكاية البحار - الدقل - المرفأ) : مهدي عبيدي ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق 2011.
12. الرواية والمكان (دراسة المكان الروائي) : ياسين النصير ، ط2، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ، 2010م.
13. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا ، د. إبراهيم جنداري ، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) ، بغداد ، ط1 ، 2001م.
14. المكان في الرواية العربية ، غالب هلسا ، ط1، دار ابن هانئ - دمشق ، 1989م .

-الرسائل والأطاريح :

15. البنية الزمانية والمكانية في رواية زقاق المدق : (رسالة ماجستير) للباحثة جويده يحيوي ، جامعة محمد بوضياف . المسيلة ، 2015م.
16. شعرية الفضاء الروائي (رواية البيت الاندلسي) لواسيني الأعرج ، اعداد سعاد عثماوي و سويهلة عمري ، باشراف نعيمة قوادي ،كلية الآداب ، جامعة بجاية ، 2015م.
17. صورة المكان ودلالته في روايات واسيني الأعرج : (اطروحة دكتوراه) للباحث جوادي هنية باشراف أ.د صالح مفقودة ، جامعة محمد خضير بسكرة ، 2012-2013م
18. الغربة والاعتراب في روايات غائب طعمة فرمان : (رسالة ماجستير) للباحثة ميساء نبيل عبدالحميد ، بإشراف أ.د صالح علي حسين الجميلي ، كلية التربية ، جامعة تكريت ، 1432هـ 2011م.
19. المكان في روايات غالب هلسا: (رسالة ماجستير) سحر ريسان حسين بإشراف ، أ.د ابراهيم جنداري جمعة ، أ.د عبد الستار عبد الله المصلح ، كلية التربية جامعة الموصل 2004م.